معايير اختيار وتخطيط المدن العربية الإسلامية

أ.د. صبري الهيتي•

أولاً : **اهتمام الإسلام بالعمارة** :

كان لظهور الإسلام كقوة سياسية جديدة في العالم ، آثره الواضح في ظهور مدن إسلامية كانت بمثابة مراكز حضرية حملت لواء الحضارة بعد سقوط روما[1]. ومثلت هذه المدن المستوى التطبيقي لتكثير العمارة التي عدت الركن الخامس من أركان الملك ، حسب رأي ابن الأزرق الذي حددها بـ (نصب الوزير واقامة الشريعة واعداد الجند وحفظ المال ثم تكثير العمارة ، باعتبارها من مظاهر عظمة الملك ووجباته).[2]

وفي رأي ابو ذرع (ان حسن مواضع المدن ان تجمع بين خمسة أشياء وهي النهر الجاري والمحراث الطيب ، والمحطب القريب ، والسور الحصين ، والسلطان أذ فيه صلاح حالها وامر سُبلها وكف جبابرتها). [3]

وفي بداية العصر الإسلامي برزت أهمية الموقع المحصنتحصيناً طبيعياً في الدفاع عن المدينة وحمايتها ، فالمدينة المنورة محصنة تحصيناً طبيعياً من جهاتها المختلفة فيما عدا الناحية الشمالية التي آمر الرسول صلى الله عليه وسلم ان يحفر حولها الخندق عندما واجه خطر الهجوم عليها من هذا الاتجاه .

وفي خلافة عمر بن الخطاب (رض) وعند إنشاء (مدن الهجرة) ابدى رأياً تخطيطياً حصيفاً مفاده : الا يفصل المدن التي تنشأ ويستقر فيها جند الإسلام ماء عن مركز الخلافة (المدينة المنورة) فكان اختيار مواقع البصرة ١٤هـ (٦٣٥م) والكوفة ١٧هـ (٦٣٨هـ) والفسطاط ٢١هـ (٦٤١)محكوماً بهذا الاعتبار ثم طبق هذا المبدأ على مدن أخرى فيما بعد مثل القيروان ٥٠ او ٥١هـ (في العصر الأموي) .

هذا كان في الوقت الذي لم يكن فيه للمسلمين قوة بحرية تمكنهم من الدفاع عن تلك المدن ، وحتى لاتكون الموانع المائية عائقاً في العمليات الحربية التي تستدعي الكر والفر ، وتزويد الجيوش بالإمدادات اللازمة ، ولما توفرت هذه القوة واصبح للمسلمين باعاً طويلاً في القتال البحري ، تم اختيار مواضع للمدن تطل على ساحل البحر ، بل اختير لها مواضع حصينة مثل أشباه الجزر الممتدة كالكلف في البحر (المهدية) او هناك اعتبارات معينة تختص باختيار تلك المواضع للمدن الساحلية كأن تكون في جبل او بين

• أ.د. صبري فارس الهتيبي ـ كلية الآداب – جامعة بغداد.

[1] Quemtime H. stam ford and norman, Geography, A study of jts. Elements, P-335.

[2] ابن الأزرق ، بدائع السلك في طبائع الملك ، تحقيق د. محمد عبد الكريم ، نشر الدار العربية للكتاب ، ١٩٧٧ ، ج١، ص٢٢٣ .

[3] د. محمد عبد الستار عثمان ، المدينة الاسلامية ، عالم المعرفة ، الكويت ، اغسطس، ١٩٨٨ ، ص٩٦ .

أمة موفورة العدد ، واذا لم تكن كذلك طرقها العدو البحري في أي وقت أراد لأمته إجابة الصريخ لها ويضرب ابن خلدون ملاً على ذلك : طرابلس وبرقة وسلا التي تعرضت للهجمات الكثيرة بسبب عدم مراعاة هذه الاعتبارات في الاختيار . ويشير إلي مدن أخرى كانت متوعرة المسالك وحولها القبائل بحيث يبلغهم الصريخ ، تمنعت بذلك من العدو ، ويئس من طرقها كما في سبتة وبجاية.[٤]

وقد عرف الفكر الاسلامي ان العمارة سبيل الملك وتقوية اركانه مما تدره من الاموال عندما اعتبر ان الملك بالجند ، والجند بالمال والمال بالعمارة ، وهذه اشارة واضحة الى ان العمارة هي المحرك الاساسي للحركة الاقتصادية ، ويكشف هذا عن نظرة عميقة في اهمية العمارة وجدواها وضرورة تكثيرها . ويعد الخليفة المعتصم من الخلفاء الذين اهتموا بالعمارة، واسسوا مدناً عواصم للخلافة حيث قال " ان العمارة فيها امور محمودة ، اولها عمران الأرض التي يحيا بها العالم ، وعليها يزكو الخراج ، وتكثر الاموال وتعيش البهائم ، وترخص الاسعار ويتسع المعاش ، وكان يقول لوزيره : اذا وجدت موضعاً متى انفقت فيه عشرة دراهم جاء بعد سنة احد عشر درهماً ، فلا تؤامرني فيه ".[٥]

وقد اهتم المفكرون ، المسلمون بمفاهيم نظرية اساسية ومعايير تخطيطية واقعية لاختيار مواضع المدن ويعد ابن ابي الربيع ت (٢٧٢هـ/٨٨٥هـ) ممن اهتم لمعالجة هذا الوضع فقد حدد شروطاً ستة تجب مراعاتها في اختيار موضع وموقع المدينة وهي : " سعة المياه المستعذبة . وامكان الميرة المستمدة ، ، واعتدال المكان وجودة الهواء ، واقرب من المرعى والاحتطاب ، وتحصين منازلها من الاعداء والذعار ، وان يحيط بها سور يعين اهلها " .

كما يورد ثمانية شروط ينبغي الاخذ بها كي تكون استعمالات الارض Landuse داخل المدينة متناسقة مع بعضها . وتوفر افضل الخدمات لسكانها وهي :

" ان يسوق اليها الماء العذب ليشرب اهلها ، ويسهل تناوله من غير عسف ، وان يقدر طريقها وشوارعها حتى تتناسب ولا تضيق ، وان يبنى جامعاً للصلاة في وسطها ليتعرف عليه جميع اهلها ، وان يقدر اسواقها حسب كفايتها لينال سكانها حوائجهم عن قرب ، وان يميز بين قبائل ساكنيها بان لا يجمع اضداد مختلفة متباينة وان اراد سكناها فليسكن افسح اطرافها ، ويجعل خواصه محيطين به من سائر جهاته ، وان يحيطها

---

[٤] المصدر نفسه .

[٥] ابن رضوان ، الشهب اللامعة في السياسة النافعة ، تحقيق الدكتور سامي الفشار ، دار الثقافة ، الدار البيضاء ، ١٩٨٤ ، ص٢٣٢ .

بسور مخافة اغتيال الاعداء لانها بجملتها دار واحدة ، وان ينقل اليها من اهل العلم والصنائع بقدر الحاجة لسكناها حتى يكتفوا ويستغنوا بهم عن الخروج الى غيرها.[٦]

ولم يغب عن المفكرين المسلمين : تأثير العدل ومقاومة الظلم ، وتأثيره على توفير الأمن ، وعكسه عند يسود الظلم ويحل الخراب وما ينعكس عن اضمحلال العمارة . اذ وضع مبدأ واضح عد بمثابة قاعدة ينبغي توافرها وهي :اذا كان الظلم واقعاً على الناس واموالهم فأنهم " يقعدون عن المعاش وتقبض ايديهم عن المكاسب ، فتكسد اسواق العمران ويخف سائر مظهره فراراً عنه لتحيل الرزق في غير أيالته ، فتخرب امصاره وتقفر دياره ، وتختل باختلاله الدولة والسلطان " كما ان "ظرب العمران يكون سريعاً بسبب اخذ اموال الناس مجاناً ، والعدوان عليهم في الحرم والدماء والابشار والاعراض لما ينشأ عن ذلك من الهرج المفضي الى ذلك ، وان كان هذا الظلم تدريجياً بأخذ الاموال عن طريق الوظائف الباطلة والمكوس المحرمة ، او تكليف الاعمال وتسخير الرعايا بها ، لان ذلك يؤدي الى اغتصاب قيمة عملهم ، ويذهب بمعاشهم بالجملة ، وتكرار ذلك يؤدي الى افساد آمالهم في العمارة ، فيقعدوا عن السعي فيها جملة ، فيؤدي ذلك الى خرابها لا محالة.[٧]

ثانياً : **<u>المخطط الداخلي للمدينة</u>** :

وقد اسست المدن الاسلامية على وفق خطط توخت ايجاد علاقات انسانية سليمة وحميمة بين ساكنيها من المسلمين . بما في ذلك الشوارع والازقة ومقدار اتساعها . فهذه الكوفة التي اسست على يد سعد بن ابي وقاص (رض)وفقاً لتوجيهات الخليفة عمر بن الخطاب (رض)، حيث حددت اتساع شارعها الرئيس بأربعين ذارعاً ، والشوارع الثانوية بثلاثين ذراعاً والتي تليها بعشرين ذراعاً وحدد اتساع الازقة والسكك الفرعية بسبعة اذرع[٨] وفي القطائع ٦٠ ذراعاً الا الذي لبني ضبة .

وانشأ المسجد في وسط المدينة وبجواره دار الامارة ومن هذه المنطقة التي تمثل مركز المدينة امتدت الشوارع (المناهج) خمسة في اتجاه الشمال ، واربعة في اتجاه الجنوب ، وثلاثة في اتجاه الشرق ، ومثلها في اتجاه الغرب وقد اطلق الطبري على هذه الشوارع (مناهج اهل العزم) واشار الى ان الشوارع الثانوية كانت تسير موازية للشوارع الرئيسية السابقة ، واحياناً متقابلة معها ، واطلق عليها (مناهج الدهناء) (ولربما الدهماء)ثم يلي ذلك الشوارع الفرعية التي كانت اقل اتساعاً ، وتربط التكوينات المعمارية بالشوارع الثانوية والرئيسية وبالنسبة الى اسواق المدن فأنه : قد كان سوق المدينة ينشأ في منطقة الوسط ، وكانت عبارة عن ساحة فضاء منا هو الحال في سوق

---

[٦] شعاب الدين احمد بن محمد بن ابي الربيع ، سلوك المالك في تدبير الممالك على التمام والكمال ، ص١١٨، ١٢١-١٢٢.

[٧] ابن الازرق ، المصدر نفسه ، ج١، ص٢٢٥ .

[٨] الطبري ، تاريخ الأمم والملوك ، حوادث سنة ٧١ هـ ، ص٢٤٩ .

المدينة المنورة ، حيث كان الخليفة عمر (رض) حريصاً على ان تظل السوق بالهيئة التي اقرها الرسول (ص) في المدينة ، واشار اليعقوبي ايضاً اشارات تؤكد هذه الهيئة فنذكر ان مسحة السوق في الكوفة كانت فضاء لا توجد بها مبان او سقف ، اللهم الا تلك الظلل التي عملت لتظل البائعين في اماكنهم التي اختاروها واستمرت السوق على هذه الهيئة حتى عهد هشام بن عبد الملك (١٠٥-١٢٥هـ / ٧٢٤-٧٤٣م) عندما قام عامله على الكوفة خالد القسري بإنشاء الاسواق على هيئة معمارية جديدة ، تشتمل على حوانيت سفلية ، ومساكن علوية للسكنى.[٩] ومما سبق يتضح ان تخطيط الكوفة سار على المنهج نفسه الذي وضعه في المدينة ثم في البصرة .

وسار تخطيط الفسطاط على النمط نفسه كذلك ، فقد أسسها عمرو بن العاص بأمر الخليفة عمر سنة ٢١هـ / ٦٤١م[١٠] وكان عمرو يريد ان يتخذ من الإسكندرية مركزاً له ، لكن الخليفة أمره ان يبني في موضع لا يفصله عنه ماء إذ كتب إليه قائلاً (أني لا احب ان تنزل المسلمين منزلاً يحول الماء بيني وبينهم في شتاء ولا صيف).[١١] فاختار موضع الفسطاط على الشاطئ الشرقي للنيل بجوار حصن نابليون . وبدأ عمرو بإنشاء المسجد الجامع، وخط في المنطقة المحيطة به سوقاً ، ومن حول ذلك اختطت الخطط للقبائل وجعلت خطة (أهل الرأي) قريبة من المسجد.[١٢]

ويكشف حديث المقريزي عن خطة (اهل الراية) وخطة (اهل الظاهر)، وخطة اللفيف من خطط الفسطاط ، عن ان هاك علاقة واضحة بين الخطة في المدينة وسجل القبائل في الديوان ، وان ترتيب المحلات السكنية (الخطط) يتبع في الغالب ترتيب قطاعات الجيش.[١٣]

وبدأت الفسطاط بداية قوية في عمرانها حتى ان خططها لغت سبعة واربعين خطة عند انشائها أطلقت عليها أسماؤها بعد ان استقرت القبائل فيها . وتركت حرية تقسيم كل خطة لافراد القبيلة ، كما حدث في البصرة والكوفة . وتوزعت (مساجد الخمسة) في الخطط فكان في كل خطة مسجد او اكثر ، وتضمنت الخطط ساحات فضاء او رحاب.[١٤]

---

[٩] المصدر نفسه .

[١٠] ابن عب الحكيم ، فتوح مصر واخبارها ، ليدن ، ١٩٢٠ ، ص٩١ .

[١١] ابن دقماق ، الانتصار لواسطة عقد الامصار ، ج٤، ص٦١-٦٢ .

[١٢] د. محمد عبد الستار عثمان ، المصدر السابق ، ص٦٩ .

[١٣] المقريزي ، الخطط ، بولاق ، ج١، ص٢٩٧ .

[١٤] القلقشندي ، صبح الاعشى ، ج٣، ص٣٣١ .

يتضح مما سبق ان الخطة كانت في الفسطاط كما في البصرة والكوفة أساس نظام تخطيط المدينة ، فهي وحدة تخطيطية أساسية ، وان هذا النظام قام على أساس القبيلة باعتبارها هيئة اجتماعية او مؤسسة قائمة .

ثالثا : **المدلولات ألا إنسانية للفضاءات في المدن العربية** :

اعتمد الفكر المعماري العربي على استنباط اهدافه من القيم التراثية والدينية ، باعتبارها خلاصة لتجربة سابقة منحها الفكرة على الابتكار . اذ للعمارة حالتان وجوديتان اولهما مادية حية من حيث وجودها زمانياً ومكانياً وثانيهما ادراك لهذا الوجود الحسي وتصور له.[١٥]

وارتباط العمارة بالمجتمع يتضمن علاقتها بالدين والثقافة ، فالدين كان منذ القدم اربطة اجتماعية وثيقة تجمع بين الناس . اما الثقافة فهي ذات بعد مهم يرتبط بالثقافة العربية يتمثل بوحدوية هذه الثقافة التي تشكل بعداً جوهرياً مهماً في الفكر الحضاري العرب.[١٦]

إن المتصور الذهني للمدينة يعتمد من ضمن ما يعتمد عليه التكوين البئي الذي هو التنظيم الفراغي لعناصر المناطق والممرات وحوافها وبؤر نشاطاتها وعلاماتها المميزة . الذي يعني بالفضاءات الموجودة في المدينة العربية الاسلامية ، سواء في المساكن او في المساجد او المدارس او الاسواق فضلاً عن الشوارع والازقة وهي التي حرص المعماري العربي المسلم ان يكون لها دلالات انسانية تعطيها معنى ، هذا المعنى الذي تضمن القيم الاجتماعية والفردية والمتغيرات الثقافية المختلفة ، كما يدخل ضمنها المعنى لعناصر المكان مثل الصفات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والدينية والتاريخية والوظيفية . وهذه العناصر هي التي سعى المخطط العربي المعماري في المدينة العربية – الاسلامية ان يجعلها متحققة لجميع ساكني تلك المدينة على وفق ما طالب به الدين الاسلامي الحنيف .

الاهداف المتوخاة من الفضاءات :

استوحى المخططون العرب اهدافهم في تخطيط المدن وما فيها من وحدات سنة او مؤسسات دينية او اجتماعية او تجارية او علمية ، مما دعى اليه الدين الاسلامي من اشاعة الروح الانسانية والعدالة بين المسلمين وبذات الوقت التهيؤ للدفاع عن حياض وطنهم ذد هجمات الاعداء واهم هذه الاهداف .

أ. **الدينية** :

---

[١٥] سعاد بودماغ ، الخطاب المعماري بين الفكر الغربي والفكر العربي ، مجلة المستقبل العربي ، العدد ٢٣٨ اكتوبر ١٩٩٩ ، ص١٢٢ .

[١٦] محمد عبد الجابري ، تكوين العقل العربي ، بيروت ، مركز دراسات الوحدة العربية ، ١٩٨٨ .

فقد استوجبت صلوات الجماعة سواء في الاوقات الخمسة او في صلاة الجمعة ، وجود عدد كبير من المصلين في المساجد والجوامع ، مما تطلب توفير اماكن يراعى فيها الظروف المناخية المتطرفة وبنفس الوقت توفير الالفة بين الناس المتجمعين باعداد كبيرة وكذلك توفير اماكن للمناظرة والمحاورة وحلقات الدرس والنقاش وانعقاد جلسات القضاء .

ب. **الاجتماعية والعسكرية** :

اذ ينبغي مراعاة توفير حرمة للبيت وفق ما نصت عليه الشريعة الاسلامية وبنفس الوقت اتاحة اكبر قدر من الراحة لساكنيه .

وفي الأماكن العامة تم التأكيد على المزاوجة بين تحقيق التعاون والتقارب مع ابقاء الاستعداد للجهاد . فقد استوجبت الناحية العسكرية التحصن والدفاع عن المدن ، مع اعطاء قدرة للمدينة في المناورة والدفاع عن الازقة الضيقة والملتوية ، مع توفير فضاءات توفر المرونة والحركة لممارسة العديد من الفعاليات الاجتماعية .

ج. **التكيف للمناخ القاسي** :

وخاصة الحرارة العالية صيفاً واشعة الشمس القاسية والريح اللافحة ، فقد سعى المخطط العربي الى تحقيق الراحة للناس في مساكنهم ومدارسهم ومساجدهم وفي المدارس والاسواق ، كما تم التخطيط لوقايتهم من الامطار شتاء ، مع المحافظة على تمتعهم بالنظر الى السماء لما لها من قدسية دينية في نفوس المسلمين . اذ تم مراعاة الاحساس بالفضاء الخارجي وهم جالسون في داخل الأبنية ، فقد حسبوا بشكل دقيق مقدار الاضاءة داخل المنازل بزاوية سقوط الشمس اثناء ساعات النهار وبما لا يسمح الا بإدخال قدر بسيط من الضياء وكذلك من الرياح بما لا يجعل درجة الحرارة داخل المنزل تزداد .

ويمكن اجمال الدلالات الانسانية للفضاءات في المدينة وفق نسيج المدينة المتمثل بتركيبها وما تحويه من مساجد واسواق ومساكن . وخانات ومدارس وشوارع وازقة . والعناصر التخطيطية لهذا النسيج وما يتصف به من تصميم حسب مقاييس دقيقة سواء بشرية او تخطيطية تراعي الاستغلال المحكم لمجال المدينة في اعطاء مرونة في الحركة والنشاط .

التصميم المعماري في مجال الفضاءات

وقد تمت مراعاة ـ عند تصميم الفضاءات ، تحقيق الاحساس بالفضاء الخارجي وهم جالسون في الابنية لما للسماء من قدسية في حياتهم من خلال الاروقة او الفضاءات الوسطى ، او النوافذ العلوية التي تدخل (اضاءة الشمس) وفق حسابات دقيقة – تتوافق مع حرارة الجو التي تتأثر بزاوية سقوط الشمس اثناء ساعات النهار ، بحيث لا تسمح بادخال الا قدر بسيط من الضياء وكذلك من الرياح الحارة في فصل الصيف .

ولاعطاء فكرةواضحة سنختار عدداً من النماذج من تلك الفضاءات وهي :

١. **فضاءات الاسواق** :

كانت الاسواق تحتوي على فضاءات توفر الحماية والمتعة للسكان ، ففي بغداد المدورة مثلاُ كانت اربعة اسواق رئيسية في الطاقات الممتدة بالطرق الاربعة بين السور الثاني والثالث ، ولهذه الطاقات نوافذ وضعت بحيث تسمح بدخول اشعة الشمس في الوقت نفسه تمنع تساقط المطر من داخلها.[١٧] وقد ذكر اليعقوبي " ان الطاقات التي تشغلها الاسواق كانت مقببة بالطابوق المفخور والجص وان الزخارف التي كانت تزين جدران وسقوف هذه المنشآت مصنوعة من الآجر.[١٨]

وفي الجانب الشرقي من بغداد كان السوق الرئيسي فيه معقوداً بالآجر والجص وله باب مقوس عرف بباب الطاق وفي سوق يحيى كانت الدكاكين عالية وهي على طراز باب الطاق .

في حين كان الاعتناء ببناء سوق الصاغة كبيراً جداً بحيث تكون بناء عالي جداً واساطين ساج عليهما غرف مشرفة .

وفي سامراء كانت لكل بائع دار وا طاقة وكل تجارة تكون سوقاً فرعية صغيرة ، وكانت للسوق باب خاصة تغلق وقت الغروب .

وقد عمل زياد بن ابيه على تسقيف سوق البصرة.[١٩] وكان سوق الكوفة مغطى بالحصر في بادئ الأمر حتى زمن خالد القسري والي العراق حيث عقدت بالحجارة.[٢٠]

ولقرب السوق من المسجد الجامع له اهمية في توفير الألفة واللحمة الاجتماعية والمودة ،اضافة الى تحقيق الفوائد الاقتصادية والتبادل التجاري .

٢. **فضاءات المساكن** :

استهدف المخطط العربي المسلم في رؤيته تخطيط المساكن ، بجعلها تحقق توفير الحرمة للعوائل ، وعندما جعله يتجه نحو (الوصيد) او الحوش الذي يعني الفناء . واصبح لهذا الحوش في تصميم البيت الاسلامي فوائد كبيرة منها تلطيف حدة الضوء والتخفيف من شدة الحرارة والقيض . والاتصال عن طريق البصر حيث يبقى ساكن البيت على صلة بالسماء وما لها من معنى في نفسه وقدسيته في ذاته . زد على ذلك خلق الألفة والمتعة وهم يتحلقون حول مصدر مائي للتجميل ممثلاً بالنافورة او (الشذروان كما يسمونه) وبعض النباتات في الحديقة الوسطية رغم صغر مساحتها .

يضاف الى ذلك توفر الاروقة ، (الرواق : هو ما اطاف بالبيت) وتقام في مقدمة الاواوين (والايوان : هو بناء مؤلف من ثلاثة جدران ويعلوه طاق عال ومسقف ويكون مكشوفاً من واجهته الامامية المطلة على الصحون) .

---

[١٧] محمد عبد الجابري ، تكوين العقل العربي ، بيروت ، مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٨٨ .

[١٨] اليعقوبي ، البلدان ، بريل ، ١٩٨٢م ، ص٢١٣٣ ، احمد صالح العلي ، خطط البصرة

[١٩] المسيو لويس ماسينيون، خطط الكوفة وشرح خريطتها، ترجمة تقي محمد المصعبي، تحقيق كامل سلمان الجبوري، النجف، ١٩٧٩، ص٩٥.

[٢٠] د. صلاح العبيدي و د.طلعت الياور، البيت العربي الاسلامي تخطيطاً ومصطلحا، دورة اصالة انظمة المدينة العربية(مصدر سابق) ص ٨.

وهو عنصر معماري عربي اصيل مقتبس من بيوت الشعر عند اهل البوادي.[٢١]
كما ان لوجود (القبو) في المساكن له تأثير في تلطيف حرارة الصيف خاصة عندما يزود بملاقف الهواء (رواق النسيم) الذي يطلق عليه ايضاً البادكير (وهي كلمة غير عربية).

٣. **فضاءات الخانات** :

الخان يعني بيت المسافرين ، وجاءت اقدم اشارة للخان في الفترة بين (٨٠٠-١١٠٠م).[٢٢] وربما يكون تحريفاً لكلمة حانوت الآرامية . ويوفر الخان العديد من الفضاءات المهمة لسكان المدينة العربية ، وبوظائف مزدوجة منها توفير ساحات لمرابطة الخيول ، وغرف لخزن البضائع التجارية واماكن لعرضها لغرض البيع وغرف لسكن ، وفي تصميم الخان تصل صحنه بممر عن طريق فضاء انتقالي وهو مدخل الخان ، ويتصل الحوش (الصحن) والممر التسويقي اتصالاً كاملاً ، اذ يتبع الصحن جزء من فضاء السوق .

٤. **فضاءات المدارس** :

أنشأت العديد من المدارس في المدن العربية وخاصة في بغداد عاصمة الخلافة العباسية ، كانت على قدر كبير من الروعة في تخطيطها ومراعاة لراحة الدارسين فيها للعلوم المختلفة من فقه وعلوم قرآن وحديث وعلوم اخرى . حيث وفرت فيها فضاءات عديدة .

والمدرسة النظامية التي أنشأها الوزير السلجوقي نظام الملك ٤٥٧هـ/١٠٦٥م) فقد كانت تحوي على مدخل ضخم وصحن مكشوف حول مصلى وايوان واحد ، وعدد من الغرف الصغيرة بطابقين يعيش فيها الطلبة ودروسهم وقاعات كبيرة للتدريس اضافة الى مرافق اخرى.[٢٣] وكانت تدرس المذهب الشافعي في الفقه ومن شيوخها المشهورون الغزالي .

ثم المدرسة المستنصرية التي تم بنائها في سنة ٦٣١هـ/١٢٣٣م) ، والتي تبلغ مساحتها ٤٨٣٦ متر مربع . وهي مستطيلة الشكل يتوسطها فناء مستطيل وتحيط بالصحن ثلاثة اواوين : اثنان في كل من الجهتين الشرقية والغربية والايوان الثالث مطل على الخارج في الجدار الغربي ، والحجرات والغرف والقاعات الكبيرة والمسجد

[٢١] لمياء حسن الغرواي، الخانات دراسة معمارية لحالة من بغداد، مركز احياء التراث العلمي العربي، ١٩٨٥، ص٢.
[٢٢] د. غازي رجب، العمارة العربية في العصر الاسلامي في العراق، ١٩٨٩، ص٢٤٩.
[٢٣] د. مصطفى جواد، د. أحمد سوسة، دليل خارطة بغداد، مطبوعات المجمع العلمي العراقي، بغداد، ١٩٥٨، ص ١٧٨ ـ ١٨١.

والدهاليز والاروقة اضافة الى المصلى . ويغطي كل من هذه الاواوين قبو مدبب واجهته ذات عقد يرتفع قليلاً عن البناء وتزيينها الزخارف الآجرية.[٢٤]

وكانت المدرسة المرجانية التي بناها امين الدين مرجان سنة ٧٥٨هـ/١٣٥٦م ، مربعة الشكل تتكون من صحن مربع الشكل في الشكل في الجهة القبلية منه بيت صلاة كبير الارتفاع سقفه بارتفاع طابقي البناء مزينة جدرانه بالزخارف الآجرية . ويقابل المصلى من الجهة الثانية من الصحن ايوان ضخم شبيه بايوان المدرسة المستنصرية ، وعلى جانبيه غرف صغيرة بطابقين لسكن الطلبة والمدرسين.[٢٥]

وكذا الحال في القصر العباسي الذي هو احدى المؤسسات العلمية والذي شيده الخليفة المستنصر (٦٢٨هـ/١٢٣٠م) ثم مدرسة او (دار المسناة) التي انشأها الناصر لدين الله واقام فيها خزانة كتب جليلة وكانت سنة بنائها بين ٥٧٦هـ و ٥٨٠هـ (١١٨٠-١١٨٤م).[٢٦]

ويتألف البناء من ايوان متصل من طرفيه بسلسلة من الغرف والقاعات والمجازات ، وداخل المدرسة صحن مكشوف مربع الشكل تحيط به مشتملات البناء من جميع الجهات وتتكون من غرف صغيرة تسبقها اروقة في الجهتين الشرقية والغربية ويتوسطها ايوان كبير في الجهة الجنوبية . وتشغل الجهة الجنوبية من الصحن قاعة كبيرة مفتوحة على الصحن .

من ذلك يتضح لنا اهمية هذه الفضاءات في هذه المؤسسات العلمية والتي يسكنها الطلبة والاساتذة ومدى اهتمام المخطط العربي بالعلماء وطالبي العلم .

٥. **فضاءات الشوارع والازقة** :

اهتم العرب المسلمون بتخطيط شوارع المدينة وازقتها بحيث جعلوها وفق ترتيب محسوب يضيف للمدينة جمالية معينة ، ويوفر لسكانها الراحة والطمأنينة والحماية .

فالشارع الرئيسي بعرف ٤٠ ذراعاً والسكة (الشارع الفرعي) ٣٠ ذراعاً والزقاق (٧ أذرع)، وان عداً منها تكون مغلقة وملتوية ، ولذا فأن هذا الضيق للأزقة والشوارع الفرعية مع وجود العقود يوفر الظل وحركة الهواء توفر البرودة صيفاً ، اضافة الى توفير الألفة والراحة لافراد العوائل ، حيث تقوي لديهم رابطة الجيرة اضافة الى ذلك الاهداف العسكرية.

---

[٢٤] رجب، المصدر نفسه، ص ٣٦٩.

[٢٥] د. مصطفى جواد، د. أحمد سوسة، مصدر سابق، ص ١٨٦،(شريف يوسف، تاريخ في العمارة العراقية، بغداد، ١٩٨٢، ص ٤٩٣)

[٢٦] د. صبري فارس الهتيبي، المعايير الناخية المعتمدة في تخطيط المدينة العربية (الكوفة كحالة تطبيقية) ابحاث الندوة القطرية السادسة لتاريخ العلوم عند العرب مركز احياء التراث العليم العربي، جامعة بغداد، ص ٣٤١.

وكان يوجد في وسط كل محلة رحبة لربط خيول الفرسان ، او ان يتخذ بعضها مقبرة لدفن موتاهم .

ان خطة الشوارع والازقة كانت محكمة بحيث يدرك من ينظر الى خارطة أي مدينة عربية ا ومن يدخل في بعض المدن التي ما زالت قائمة وتحاكي خطتها خطط تلك المدن الأولى ، روعة هذه الفضاءات الموجودة دال المدينة المنغلقة على الخارج والمنفتحة على داخلها مع توفير الراحة النفسية والجسدية لسكانها من خلال ما توفره من عنصر المفاجأة والتدرج المفاجئ الذي يخرج من الزقاق الضيق نحو الشارع الواسع .

يضاف الى ذلك ان التواء الازقة وتعرجها يحد من اندفاع يحد من اندفاع الرياح والعواصف الترابية حيث انها تعمل بمثابة مصدات امامها .

وهناك فائدة مهمة وهي اخفاء مجالاً مخفي وراء الجدران الصماء ، يستقر المار من خلال الازقة ، وتدفعه الى مزيد من حب الاستطلاع الممزوج بالدهشة والرغبة لمشاهدة مزيد من المناظر المبهجة ، وهو يفاجئ بين حين وآخر بمباني عظيمة منها المسجد الجامع والسوق ذات الفناءات الواسعة.

وامتازت الشوارع والازقة بكونا توفر حالات من الارتياح ، اذ يحصل المرء المتنقل من زقاق ضيق الى آخر فسيح تستطع فيه اشعة الشمس عندما يتسع الشارع او عندما يغادر الازقة المنعطفة الضيقة يجد نفسه يواجه فضاء اكثر اثارة .

رابعاً : **<u>أراء اصيلة لابن خلدون في العمران</u>** :

وكان لابن خلدون ابو زيد عبد الرحمن ابن خلدون الحضرمي (٧٧٣هـ/١٣٣٢م ــ ٨٠٨هـ/١٤٠٦م) .

آراء جديدة طرحها لأول مرة في العمران والتحضر استقاها من خلال منهجه الفكري الاستقرائي لدراسة المدن والاقاليم والقائمة على الملاحظة والمشاهدة الوصف اولاًوالتحليل والنقد ومحاولة التفسير ثانياً اضافة الى استخدام المنهج المقارن بين العمرانيين البدوي والحضري.

وسنحاول فيما يأتي التركيز على ما ابدعه فكر ابن خلدون في هذا المجال والآراء التي اوردها في هذا العلم والتي سبقت العلماء والمفكرين الغربيين التي نسبت اليهم فيما بعد :

١. **موضع وموقع المدينة** :

اكد ابن خلدون على اهمية موضع المستقرة وهو المكان الذي تشغله تلك المستقرة فعلاً والذي ينبغي الاحاطة بجميع خصائصه الجغرافية كما اكد على الموقع : الذي يمثل ما يحيط بالوضع من مساحة من الارض وما ينعكس بعد ذلك على العلاقات المكانية بينهما .

فيقول ابن خلدون :

(فيعتصم بذلك المصر ويغالبهم مغالبة المصر على نهايته من الصعوبة والمشقة والمصر يقوم مقام العساكر المتعددة لما فيه من الاقتناع ونكاية الحرب من وراء الجدران من غير الحاجة الى كثير عدد ولا عظيم شوكة).

ثم يقول بشأن الموضع :

(وان يكون وضع ذلك في متمنع من الامكنة اما على هضبة متوعرة من الجبل واما باستدارة بحر او نهر بها حتى لا وصل اليها الا بعد العبور على جسر او قنيطرة فيصعب منالها على العدو ويتضاعف امتناعها وحصنها). وبذلك يكون ابن خلدون وليس راتزل Ratzel اول من حاول التفريق بين فكرة الموضع والموقع الجغرافي للمناطق الحضرية ، اذ انه ادرك اهمية موضع الموقع وتأثيره على نشأتها .

٢. **نشوء المدن** :

رأى ابن خلدون ان المدن والمستقرات الاخرى لا تظهر بصورة مفاجئة بل انها تمر بمراحل معينة في عملية نشأتها ، واستنتج بأن المدينة تتأثر الى حد بعيد بالعناصر الطبيعية للموضع والموقع اللذان تقع فيهما ، من حيث حجمها ووظيفتها وعلاقتها التجارية مع المناطق التي تحيط بها.

فقد كتب ابن خلدون عن هذا الموضوع متناولاً العوامل التي تؤثر فيها سواء ما يخص مناطق الرعي او الزراعة والوقود ومواد البناء الضرورية لسد حاجة السكان وهو ما اطلق عليه ابن خلدون بـ (الوضع الطبيعي للمدن)سواء كان هذا الوضع طبيعياً ام بشرياً وبهذه الروحية التخطيطية يضع ابن خلدون الضوابط لانشاء المدن ، ولا يفوته في هذا المجال حتى الجانب الاقتصادي لها فيقول :

(فان الزروع هي الاقوات فأذا كانت مزارع البلد بالقرب منها ، كان ذلك اسهل في اتخاذه واقرب في تحصيله) ، ثم يقول : (وقد يراعي ايضاً قرب المدينة من البحر وتسهيل الحاجات القاصية من البلاد النائية ، الا ان ذلك ليس بمثابة الاول) .

كما يذكر ابن خلدون (واما جلب المنافع والمرافق للبلد فيراعي فيه امور منها الماء بأن يكون البلد على نهر او بأزائها عيون عذبة ثرة وان وجود الماء قريباً من البلد يسهل على الساكن حاجة الماء ، وهي ضرورية فيكون لهم في وجودهم مرفقة عظيمة عامة ، ومما يراعى من المرافق في المدن طيب المراعي لسائمتهم اذ صاحب كل قرار لا بد له من دوجن الحيوان للنتاج والضرع والركوب ولا بدلها من الرعي ، فأذا كان قريباً طيباً كان ذلك ارفق بحالهم لما يعانون من المشقة في بعده ومن يراعي ايضاً المزارع فأن الزروع هي الاقوات).

٣. **مراتب المدن (الهيرلوكية)** :

لقد نسب الى والتر كريستالر W. Christiller توصله الى نظرية الاماكن المركزية Central places theory التي توصل فيها الى ان المدن تنقسم في حجومها الى طبقات ، وكل طبقة تحوي على عدد محدد من المراكز يقل العدد حتى زادت

المرتبة والتي توصل الى انها سبعة مراتب ، كما توصل الى وجود درجة مركزية لكل مكان مركزي.

وهذه النظرية التي توصل اليها كريستالر عام ١٩٣٣ كان ابن خلدون قد سبقه اليها .

فقد تناول ابن خلدون مراتب المدن وتوزعها على هذا الاساس الى طبقات ، حيث اطلق على البعض منها وهي المدن الكبرى بالمدن العظيمة او المدن الامصار المستبحرة العمران ، ويدعو العاصمة (بكرسي الدولة) ، ويدعو ما عدها بالمدن المتوسطة التي يمكن ان تتوسع اذا نزح بعض الملوك اليها فيختطها ويجري اموالها ، ويسمي دون هذه المراتب ،، بالقرى والضياع والمدائن على هذا الاساس صنف ابن خلدون المستقرات البشرية الى قرية صغيرة وبلدة ومدينة صغيرة ومتوسطة ومستبحرة او كبيرة ، وهي المدينة التي تحتوي على جميع النشاطات الاقتصادية وتوفر الخدمات والسلع لسكانها وسكان الاقليم المجاور ، وهي المدينة التي اطلق عليها كريستالر في نظريته (بالمكان المركزي) ولهذا نلاحظ ان ابن خلدون سبق هذا الباحث الالماني الذي عدت نظريته الاساس الذي بني عليه منهج جغرافية الحضر في الوقت الحالي .

فيذكر ابن خلدون حول ذلك قائلاً

فأنما يوجد في المدن المستجرة في العمارة الآخذة في عوائد الترف والحضارة مثل الزجاج والصائغ والدهان والطباخ والصفار والفراش والذباح ، وامثال هذه وهي متفاوتة وبقدر ما تزيد عوائد الحضارة وتستدعي أحوال الترف تحدث صنائع بذلك النوع . فتوجد بذلك المصر ، دون غيره ومن هذا الباب الحمامات لانها انما توجد في الامصار المتحضرة المستجرة العمران لما يدعو اليه الترف والغنى من التنعم ، ولذلك لا تكون في المدن المتوسطة وان نزع بعض الملوك والرؤساء اليها فيختطها ويجري احوالها الا انها اذا لم تكن لها داعته من كافة الناس فسرهان ما تهجر وتخرب وتفرغها القومة لقلة فائدتهم ومعاشهم. ثم يذكر ابن خلدون عن هذا الموضوع بقوله :

(ولذا نجد الامصار التي في القاصية ولو كانت موفورة العمران تعلب عليها احوال البداوة ، وتبعد عن الحضارة في جميع مذاهبها بخلاف المدن المتوسطة في الاقطار التي هي مركز الدولة ومقرها ، وما ذاك الا لمجاورة السلطان لهم وفيض اموالهم فيهم كالماء يخضر ما قورب منه ، فما قرب من الارض الى ان ينتهي الى الجفوف على البعد.

٤. **العلاقة بين المدينة والاقليم** :

لكل مدينة مهما كان حجمها (عدد سكانها) علاقات متبادلة مع منطقة تحيط بها ، تتباين مساحتها بحسب حجم المدينة وتسمى اقليم المدينة City Rigion او ظهيرها Hinterland.

وقد نسب تنظيم هذه العلاقة الى عدد من الباحثين الغربيين منهم كرستالر وديكنسون Dickinson وسمليز Smalles وغيرهم ، ويبدو ان عدد من الباحثين

العرب انساقوا خلف هذه القصور ، ولم يدركوا ، ان العالم العربي ابن خلدون كان قد سبق هؤلاء الباحثين بأكثر من خمسة قرون ، وحدد العلاقة بين المدينة واقليمها فيحاول ابن خلدون ان يرصد اقاليم المدن حسب حجومها ودرجاتها التي تتوافق مع حجوم المدن فيقول :

(واما الصنائع والاعمال ايضاً في الامصار الموفورة العمران ، فسبب الغلاء فيها امور ثلاثة اولها : كثرة الحاجة لمكان الترف في المصر بكثرة عمرانه والثاني اعتزاز اهل الاعمال لخدمتهم وامتهان انفسهم لسهولة المعاش في المدينة بكثرة اقوامها والثالث : كثرة المترفين وكثرة حاجاتهم الى امتهان غيرهم والى استعمال الصناع في مهنتهم فيبذلون في ذلك لاهل الاعمال اكثر من قيمة اعمالهم مزاحمة ومنافسة في الاستئثار بها فيعتز العمال والصناع واهل الحرف وتعلوا اعمالهم وتكثر نفقات اهل المصر في ذلك ، واما الامصار الصغيرة والقليلة الساكن فاقوالهم قليلة لقلة العمل فيها وما يتوقعونه لصغر مصرهم من عدم القوت).

ثم يقول ابن خلدون في صدد المقارنة بين المدينة الكبيرة والصغيرة من حيث درجة مركزيتها :

(ان المصر الكثير العمران يكثر ترفه كما قدمناه ، وتكثر حاجات ساكنه من اجل الترف وتعتاد تلم الحاجات لما يدعو اليها فتنقلب ضرورات وتصير فيه الاعمال كلها مع ذلك عزيزة والمرافق غالية بازدحام الاغراض عليها من اجل الترف بالمغارم السلطانية التي توضع في الاسواق والبياعات وتعتبر في قيم المبيعات ويعظم فيها الغلاء في المرافق والاوقات والاعمال فتكثر نفقات ساكنه كثرة بالغة على نسبة عمرانية ويعظم خرجه .

والبدوي لم يكن دخله كثيراً ساكناً بمكان كاسد كالاسواق في الاعمال التي هي سبب الكسب فلم يتأثل كسباً ولا مالاً فيتعذر عليه من اجل ذلك سكن المصر الكبير الغلاء مرافقه وعزة حاجات وهو وفي بدوه يسد خلته باقل الاعمال لانه من قبل عوائد التصرف في مواشيه وسائر مؤنته.

ويتضح تمييزه للتراتب في حجوم المستقرات وما يحيط بها من اقاليم مترتبة هي الاخرى في قوله :

(اعلم ان الاسواق تشمل حاجات الناس لكثرتها – بكثرة العمران ، ثم يقول ، ما كان العمران اكثر وافر كان حال اهله في الترف ابلغ .

٥. **الاساس الاقتصادي للمدن** :

ادرك ابن خلدون بان المدن والامصار لا يمكنها ان تنشأ وتتطور الا اذا اوجدت منها مهناً وخدمات تقدم لساكنيها وسكان الاقاليم التي تحيط بها ، ولذا فقد جعلها من المستلزمات الاساسية في الحضارة وقد اشار الى ذلك في قوله :

(اما الفلاحة فهي متقدمة على الصناعة والتجارة) ، كلها بالذات أي الوجوه الاخرى الطبيعية للمعاش وهي الصناعة والتجارة ، وهي بسيطة فطرية لا تحتاج الى

نظر ولاعلم ، وانها اقدم وهو المعاش وانسبها الى الطبيعة ، اما الصنائع فهي ثانيتها ومتأخرة عنها لانها مركبة وعلمية تصرف فيها الافكار والانظار ، ولهذا لا توجد غالباً الا في اهل الحضر الذي هو متأخر عند البدو وثان عنها) هو بهذا يسبق العالم الاقتصادي الالماني (فردريك ليست ١٧٨٩-١٨٤٩) الذي قسم مسار التطور الحضاري للمجتمعات الى عدة مراحل تبعاً لطبيعة النشاط الاقتصادي السائد وهو دور الرعي ثم دور الزراعة ثم دور الزراعة – الصناعة والدور الزراعي – الصناعي- التجاري.

٦. **مدى البضائع** :

لقد سبق ابن خلدون غيره من الباحثين في تأكيده على مصطلح مدى البضائع The Range of the good الذي يقصد به المسافة القصوى التي يقطعها المستهلك من اجل شراء البضاعة التي يرغب بشرائها ، وكذلك تأكيده على مفهوم البداية threshald اي الحد الادنى من المستهلكين الذين ينبغي توافرهم لاستمرار أي مخزن للبيع او مؤسسة .

وهذا الجانب ناقشه ابن خلدون بشكل جيد ، وامكنه من التمييز بين ما تحتاجه المؤسسة وبين حجم المستوطنة وحجم أقاليمها إذ يقول :- " ثم ان المصر اذا كان مستبحراً موفور العمران كثير حاجات الترف توفرت حينئذ الدواعي على طلب تلك المرافق والاستكثار منها كل بحسب حاله فيقصر الموجود منها على الحاجات قصوراً بالغاً ويكثر المستامون لها وهي قليلةً في نفسها فتزدحُم اهل الأغراض ، ويبذل اهل الرفه والترف أثمانها باسراف في الغلاء لحاجتهم اليها اكثر من غيرهم فيقع فيها الغلاء كما تراه .

وأما الصنائع والاعمال ايضاً في الامصار الموفورة العمران ، فتكون غالية الأثمان واما الامصار الصغيرة والقليلة الساكن فاقواتهم قليلة لقلة العمل فيها ، وما يتوقعه لصغر مصرهم من عدم القوت ، فيتمسكون بما يحصل منه في ايديهم ويحتكرون فيعز وجوده لديهم ويغلو ثمنه.

ثم يضيف ابن خلدون حول نفس الموضوع قائلاً :

" اعلم ان ما توفر عُمرانه من الاقطار وتعددت الامم في جهاته وكثر ساكنه اتسعت باحوال أهله وكثرت اموالهم وامصارهم وعظمت دولهم وممالكهم والسبب في ذلك كله ما ذكرناه من كثرة الاعمال ، ... وهي سبب للثروة بما يفضل عنها بعد الوفاء بالضروريات في حاجات الساكن من الفضلة البالغة على مقدار العمران وكثرته فيعود على الناس كسباً يتأثلونه فيتزيد الرفه لذلك وتتسع الاحوال ويجيء الترف والغنى وتكثر الجباية للدولة بنفاق الاسواق فيكثر مالها ويشمخ سلطانها ، وتتفنن في اتخاذ المعاقل الحصون واختطاط المدن وتشييد الامصار.

واضافة الى ما تقدم فقد تناول ابن خلدون العديد من الموضوعات التي تخص العمران مما كان له قصب السبق فيها في مجال (الجغرافية الحضرية) مثل : المدينة كونها كائن حي والتصنيف الوظيفي للمدن ، والمعايير التي ينبغي توافرها في اقليم

المدينة والعلاقة بين الحضر والبادية ومراحل التطور الاقتصادي للمدن . وبذلك يكون ابن خلدون رائداً في (مجال الجغرافية الحضرية) بل انه قد وضع الأسس للعديد من الموضوعات التي نسبت فيما بعد الى باحثين أوربيين او أمريكان .

Produced with a Trial Version of PDF Annotator - www.PDFAnnotator.com

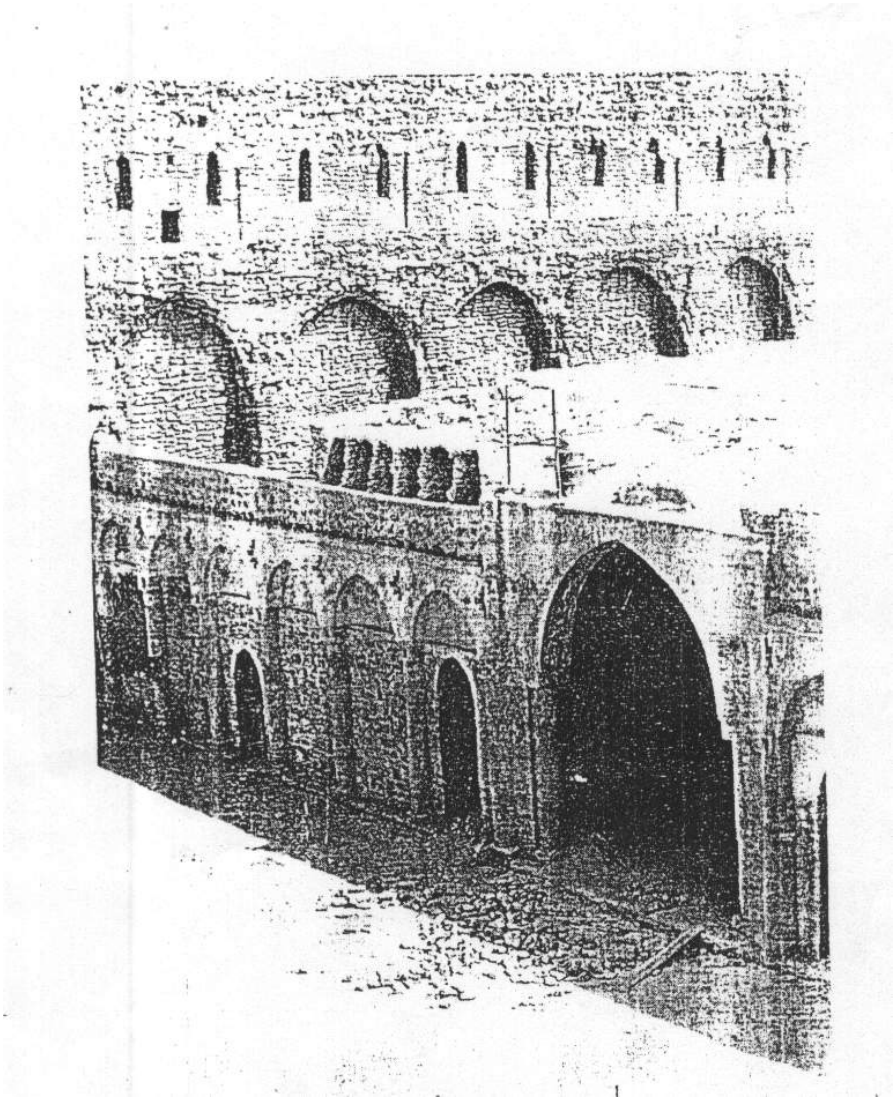

الشكل (٢) (دار الأمير من الجهة الشمالية)
يظهر البهو محاطاً بخمس غرف تكون غرفة المؤخرة مربعة وتتفتح من جهة الشرق على رواق من الغرب على غرفتين والرواق يطل على باحة مستطيلة تقوم غرفتان على يمينها وغرفتان على شمالها
يمثل اقدم ابتكار معمارى عربى للعقود منذ العصر العباسى فى سامراء وهو من الخط الحيري

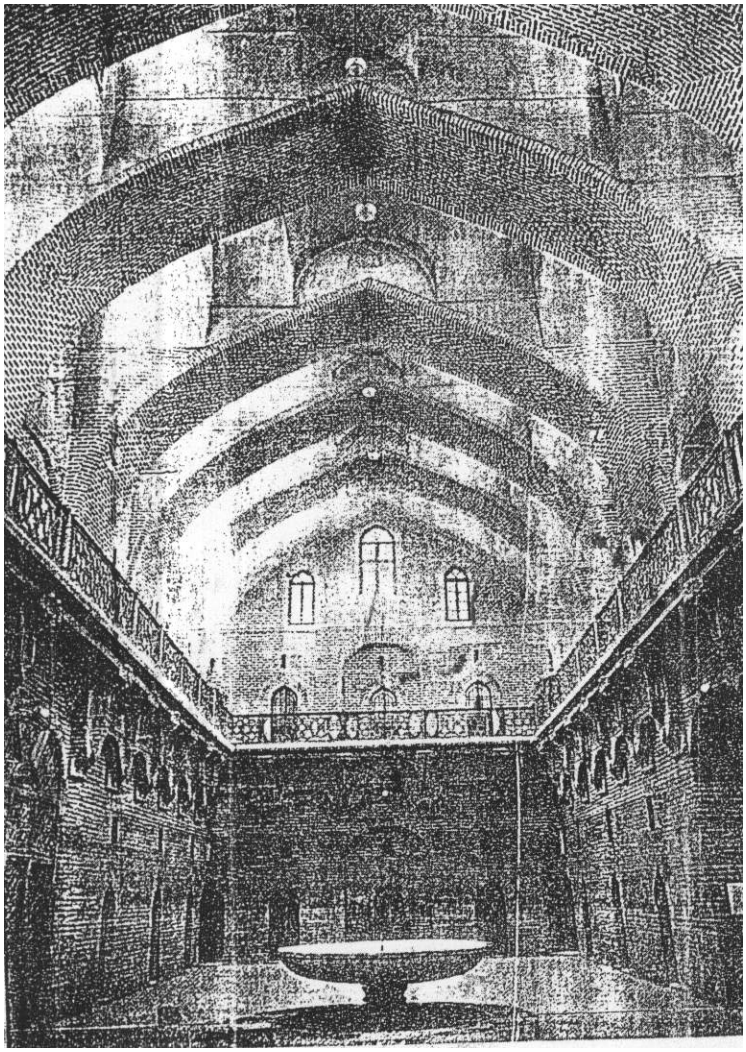

البهو العقود فى خان مرجان فى بغداد من العهد الايلخاني
شكل (٣)

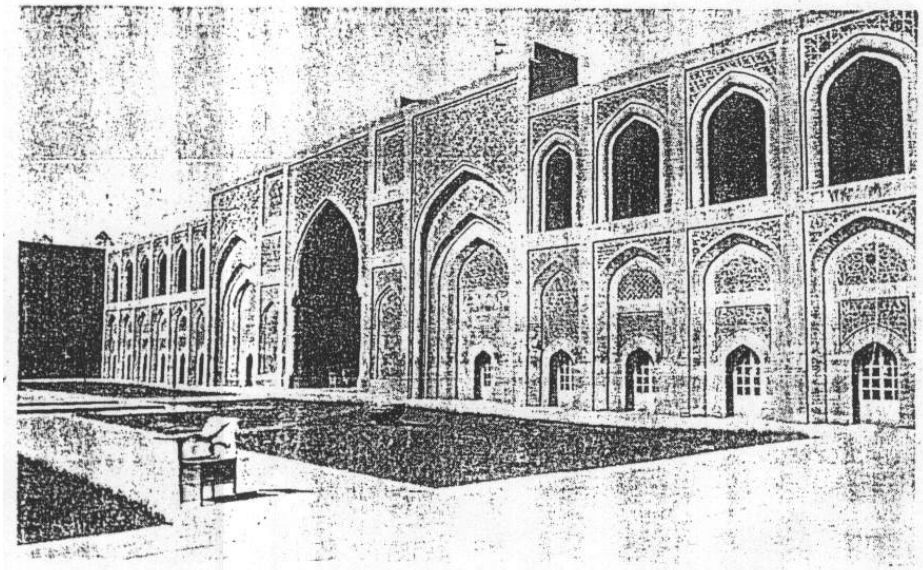

شكل (٤) واجهة المدرسة المستنصرية الشمالية من الداخل بعد التعمير